بالفعل . اما من الناحية السياسية فاننا لم نتفهم بالفعل دور الفنان وطبيعته في حياتنا ، كما نتبين ذلك بوضوح من مأساة بدر . لقد حاسبناه كما نحاسب السياسي المحترف ، عن علاقته اليومية بالاشخـــاص لا بالاحداث ، وبالوضع الجغرافي للمكان دون الزاوية التاريخية او الموقف الحضاري الذي اختاره ، وبالزمان التكنيكي القابل للتغير او الخطأ من جانب احزاب مدربة لا عن البعد الستراتيجي لانسان لا يشتغل اساسا بالاحتراف السياسي.

هذا المنهج بعيد عن فهم دور الفنان في الحياة ، ذلك ان السياب لم يرتبط باحد السلاطين ارتباطا سياسيا مباشرا ، كما ان هذا السلطان لم يمد له اليد كما كان يفعل السلاطين القدامى مع الشعراء الغـــابرين . لقد كان المال مال الشعب لا من جيب السلطان ، وفي محنة شديدة الوطأة هي محنة الصراع اليائس مع الموت، الصراع بلا مجداف يمنحه له الصديق او الجيل الذي اودعه خفقات عمره شعرا . يجب ان نعترف اننا تركنا السياب يصارع وحيدا بلا ذراع تستمد دماءها من اوردتنا وشرايين حيـاتنا . لم يخطر لاحد قط ان ثروتنـا القومية الممثلة في السياب تتبدد على مرمى البعد منا ، لاننا كنا مشغولين عنه به ، كنا مشغولين عن ضعفه بقوتنـــا ورغبتنا السارية في الاجهاز عليه، كنا مشغولين بتسويد الصفحات حول انهياره السياسي وبطولتنا الاسطورية!

لم نحاول ان نتبين الخط العام الذي ينتظم حياة بدر : هل هو مع الشعب العربي في نضاله من اجل حياة افضل ، تخلو من الاستعمار والطغيان والاستغلال ؟ فاذا اجابت اعماله الرائعة ، التي تقف الى جانب شعبنا في الجزائر وبور سعيد وبغداد ودمشق ، انه لم يتحول لحظة واحدة عن الخطوط الامـــامية في الجبهة العربية المناضلة ، لم يعد من حقنا ان نسأل عن تفاصيل واقعه اليومي الذي ينضح بالقلق الروحي العنيف ، والعذاب العضوي الذي لا يقل عنفـــا . القلق والعذاب اللذان لا يخضعان للمنطق الشكلي في تصور البطولة والثورية والتقدم ، وان تميزا بالصدق الكامل مع النفس ومع الآخرين على السواء . الخط السياسي العام ، هو الحدود التي كان علينا ان نقيم السياب بين اسوارها . وفي هذه الحدود ليس هناك من يجرؤ على اتهام السياب بالخيانة او الانتهازية او العمالة ، وما اليها من تسميات تدعو الى الشك في موقفه السياسي . لقد ظل السياب طيـــلة عمره ، شاعر الطليعة العربية بحق . ومن هذه النقطة ، كان علينا ان نتساءل : هل نحن حقـــا نؤمن بوحدة الشكل والمضمون في العمل الفني ؟ اذاً ، فماذا نقصد حين نقول ان بدر شاكر السياب كان شاعرا عظيما ؟ هل تصيب العظمة الشكل الفني لشعره فحسب ؟ ام اننا نقصد انه كان شاعرا عظيما ، شكلا ومضمونا ؟ هل نحن نؤمن حقا بوحدة الانسان والفنان في العمل الادبي ؟ اذاً ، فهل يمكن ان يكون السياب شاعرا عظيما وانسانا منحطا ؟ فاذا اجبنا – منطقيا – بان السياب كان شاعرا عظيما لانه كان انسانا عظيما ، فاننـــا حينذاك ندرك هول الجريمة التي اقترفت في وضح النهار ، وعلى مرمى البصر منا ، وكيف اننا – جميعا – شركاء فيهـــا .

نعم ، ان مأساة السياب ، في حياته وموته ، عارنا جميعا ؛ وهي مأساة تتكرر كل يوم ، فهل ستظـــل عارنا الابدي ؟

احمد رشدي حسين

شاعر تجدّد الحياة لم ترأف به الحيـاة

أليم جدا ان الشاعر الذي كان موضوعه الاول تجدّد الحياة ، وجد نفسه لثلاث سنوات طوال يتأمـــل وجـــه الموت وهو يحوم فوق رأسه . لقد نعى بدر شاكر السياب نفسه في قصيدة تلو قصيدة ، مع وعي عنيف منه لغزارة الحياة . فرغم كل ما امسك بتلابيبه من مرض، كان بدر كمن يدفع هذا الدخيل الشكس لحظة او لحظتين كل يوم ليستعيد مذاق الاشياء التي يحبها : فيتحدث في شعره عن الرياح، والمطر ، والبحار، والاصداف ، والشوارع ، وشباك حبيبة ضائعة ؛ ثم يغلبه الدخيل على نفسه ، ولا ينجيه من صور الموت –

من صور كل ما يحب وقد اقفر الوجود ، وخلا البيت ، من ابي غيلان .

« هناك بالطبع تحسن في صحتي ، لكنه تحسن غير مضطرد » ، كتب اليّ منذ سنة يقول في احدى رسائله . « تراني في حال جيدة لبضعة ايام ، ثم ما البث ان انتكس . اما رجلاي ، فقد شفيتا تقريبا . لم يبق مريضا غير ظهري » .

ثم يقول : « لا انقطع عن كتابة الشعر . انه العزاء الوحيد الذي بقي لي ... المشكلة مشكلة تجارب . من اين تأتي التجارب الجديدة وانا اعيش على هامش الحياة ؟ »

ولكن بدر ، بحساسيته لكل تجربة ، جعل من تجربة الموت نفسها مصدرا لقصائده التي لم تنقطع . مع الامل ، الامل الذي كان يوحي اليه — واليّ احيانا — بانه سيشفى ولا ريب . فيقول : « اسمع هذا النذر : لئن تحسنت صحتي وجئت الى بغداد (من البصرة) لنسكرن سكرة شاعرية عظيمة » . وبادلته النذر انا ايضا . ولكن الداء كان اقوى من كلا النذرين ، ولم يجيء بدر الى بغداد .

كان لقاؤنا الاخير ببغداد في اواخر عام ١٩٦٢ ، قبل سفره بيوم واحد الى انكلترا للدراسة — والعلاج . كنت قد سعيت له مع بعض الاصدقاء لادخاله جامعة اكسفورد ، اذ كان يؤمل بذلك ان يتفرغ لبعض الدراسات الادبية ، واهم من ذلك ، كما اسرّ اليّ ، ان يتفرغ لكتابة مذكراته . غير ان مرضه اخره عن السفر في الوقت المقرر للدراسة ، فقبل في جامعة ضرم ، في شمالي انكلترا . فجاء الى بغداد — من البصرة ، حيث كان موظفا في مصلحة الموانىء — وفزعت عندما ذهبت الى فندقه ورأيته يتوكأ على عصا ، ولا يمشي الا مجرجرا قدميه .

غير انه ، في دارنا — وكان اليوم مشرقا جميلا — كان مرحا ، كثير الكلام كعادته ؛ وبعد الغداء تجولنا في سيارتي في مدينة المنصور . لقد انتابني خاطر مظلم : رحت اتجول به في الطرق الجديدة في المنصور ، وشعرت كأنه يودع كل ما يراه من تراب وسماء وحجر . لم يرد ان ينتهي التجوال بنا . وكنا ، كدأبنا ، نتحدث عن الشعر ، عن الشعراء ، عن الحياة ، عن المستقبل ، عن السخط على السياسة . فقد ذاق بدر الامرين من السياسة ، من اليسار ومن اليمين . كان قد خرج على الشيوعيين ، فيما اعتقد ، منذ عام ١٩٥٥ ، عندما عرف موقفهم من قضية فلسطين ، وعندما وجد انه اكبر من ان يستخذي لسياسة تفرض عليه من حيث لا يدري . وهذا جر عليه انواعا من الاضطهاد بعيد ثورة عام ١٩٥٨ ، عندما علا نجم الشيوعيين ومريديهم في العراق ، فحورب في رزقه ، وفصل من وظيفته ، ومنع عن العمل في اية وظيفة اخرى ، واعتقل اكثر من مرة لاخبار بعض « زملائه » عليه من انه كتب قصيدة قالوا انه يقصد فيها مدح الرئيس جمال عبد الناصر . لقد كان عام ١٩٥٩ شؤما على بدر . كان يأتي الى بيتنا (في الاعظمية حينئذ) مشيا على الاقدام ، فيراه في الطريق من يشتمه ، ويجبره على حمل صورة عبد الكريم قاسم في شريط على ياقة معطفه ! ولكن قناته لم تلن ، ولم يكن ليحيد عن الخط الذي رسمه لنفسه . واشترك في الحملة الصحفية التي قامت بها جريدة « الحرية » بعد مجازر الموصل و كركوك على الفوضويين واعداء القوميين . ولكنه كان مصمما ايضا ، اذ اعلن عن عدائه للشيوعيين ، الا ينخرط مع اية فئة سياسية منظمة . وكان يردد يومئذ : « انني لا ملتزم . لا التزم الا حسي الشخصي بالعدالة ، والانسانية . لن يكون شعري الا من وحي ايماني الشخصي » . بيد ان هذا الموقف منه ، فيما بعد ، حمل البعض ممن كان يعتبرهم اصدقاء له ، على التهجم عليه ، ولا سيما بعد نشر مجموعته « انشودة المطر » عام ١٩٦٠ .

اعيد بعد ذلك الى الوظيفة ، وعين في مصلحة الموانىء في البصرة ، غير ان المرض اخذ يشتد عليه. لقد عالجه يومئذ الصديق الدكتور علي كمال ، وعني به عناية كبيرة مستمرة. ولكن داءه كان عضالا — يخف فترة ، ثم يتضاعف عليه. ولما ذهبنا الى مؤتمر الادب العربي المعاصر في روما في خريف عام ١٩٦١ ، كان بدر قد بدأ يجد صعوبة في المشي . وفي عام ١٩٦٢ ، جعل المرض يقعده اياما ، فاراد العلاج في بيروت ،

ثم في اوربا ، رغم ضيق ذات يده . وقد اوقعته رغبته الملحة في العلاج في الخارج في تناقضات عديدة اثرت على علاقته مع بعض صحبه ومحبيه ، كانت تجعله احيانا يقول شيئا ويكتب شيئا آخر . غير انه في قصائده الحرة لم يحد عن الخط الذي كان قد وضعه لنفسه ، ولم يخنه قط صفاء ذهنه ، حتى النهاية .

كان ذلك اليوم المشرق الجميل آخر ايام بدر في بغداد التي احبها كما لم يحب انسان بلده . فعراقية بدر قد لا يدرك عمقها الا العراقيون : اينما حل ، واينما نفى نفسه ، كانت بغداد في خـــاطره . ورموز الجدب والخصب ، رموز «بابل» من ناحية ، ورموز قريته الحبيبة « جيكور » من ناحية اخرى ، انما تمثل دوما هذا العشق لبلده واهليه . وما نشاطه السياسي وخروجه على السياسة فيما بعد سوى تعبير عن ذلـــك العشق لبلده ومن فيه .

ذهب الى اوربا ولم يفلح في علاج . وعاد بعد اشهر كسير الخاطر الى البصرة، والقى به المرض في الفراش. ومنذ ذلك الحين جاءتني منه رسائل كثيرة ، وقصائد كثيرة : عذاب كعذاب ايوب قاومه بفيض عجيب من الشعر . الى ان حمل الى مستشفى في الكويت ، وعندها انقطعت عني انباؤه – بعد محاولتي ايجاد ناشر لديوانه الاخير « شناشيل ابنة الجلبي » ، وطلبي الى الرسام العراقي البارع كاظم حيدر ان يضع تصميما لغلاف الديوان . وفي الكويت جعل يهادن الموت في شعره ، في ابيات من اجمل مـــا قيل في استسلام الانسان الفلسفي . ودخل في زمرة الخالدين .

ما الذي لنا ان نقوله ، ونحن بين فكي الفجيعة بفقدان اكبر شاعر عربي معاصر ؟ ولكن ، بالنسبة اليّ ، كان بدر اكثر من شاعر كبير . كان صديقا عزيزا حبيبا ، اترقب دوما لقاءاته التي لم تخـــل قط من تلاوة صاخبة لآخر اشعاره .

كان نقاشنا حول التجديد في الشعر نقاشا حـــارا نافذا . كان لا يتردد في شطب عشرة ابيات معا من القصيدة اذا لم ارض عنها . ولكن لمثل هذا الحديث مقاما آخر . اما اليوم ، فاننا نطلب العزاء . لعلنا نجد بعضه في قصائد بدر . لكنه عزاء مبتور حين يكون الفقيد هـذا الرجل الكبير القلب الذي بخلت الاقدار عليه باكثر من ثمانية وثلاثين عاما من العمر . رحمه الله رحمة واسعة ، وسقى قبره وابـــلا من المطر الذي كان يهواه ويتغنى به .

جبرا ابراهيم جبرا

مات الطـائر وبقيت الاغنـية

هل مات بدر شاكر السياب على سرير ؟ وفي مستشفى ؟ وبين يدي الطبيب ؟

اذاً ليضحك في قبره ! لان الكثيرين من اصدقائه لن يحلموا في المستقبل بطبيب بيطري !

مذ رأيته يترنح في « الانكل سام » ويهتز في « الديبلومات » قلت ان هذا الرجل سيسقط ميتا ، عند اول مناسبة، امام اي فندق، او صيدلية. وقد ينقضي النهار كله، قبل ان يبلّ الشرطي قلمه بلعابه، ويكتب « ضبطا » بموته .

بل مذ رأيته يرفع جوربيه المفتولين ، ويفتح فمه المختنق حتى حـــافته بالاسنان ، لينهذي عن الجدران الترابية ، ونباح الضواري في ازقة « جيكور » ، قلت : ان هـذا الرجل مؤهل الى حد كبير كي يسقط عند اول نفخة من طائرة القرن العشرين ، ومظلته مغلقة ، رغم رياح الصحف ونوابض الاذاعات !

ومع ذلـك لا بد ان نكبت اشمئزازنا ونسأل : اين كانت « النخبة » من ادبائنا وشعرائنا ، عندما كانت « النخبة » من امراضنا وكوارثنا تفتك بعزيزنا بدر ؟

طبعا لا احد يجيب . لان ما تبقى من ماء وجوههم ووجوه غيرهم لا يكفي لارواء زهرة صغيرة على قبره.